

دلائل الإعجاز

مكانٍ تقعانٍ فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملةً وتلك غريبةً وحشيةً أو أن تكون حروف هذه أخفّ وامتزاجها أحسن ومما يكُدُّ اللسان أبعده .

وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحةٌ إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا : لفظه متمكّنةٌ ومقبولةٌ وفي خلافه : قلقةٌ ونابيةٌ ومستكرهةٌ إلا وعرضهم أن يُعبروا بالتمكّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناه وما وبالقلق والنُدْبِ عن سوء التلاؤم . وأنّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لرفقاٍ للتالية في مؤدّها .

وهل تشكّ إِذا فكرت في قوله تعالى : (وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) . فتجلّى لك منها الإعجاز وبهرّك الذي ترى وتسمع ! أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمرٍ يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة والرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها وأنّ الفضل تَنَزَّجَ ما بينها وحصل من مجموعها .

إن شككت فتأمل ! هل ترى لفظه منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأُفردت لادّنت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية قول : " ابلي " واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشكّ في ذلك ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نُوديت الأرض ثم أُمّرت ثم في أنّ كان النداء بـ " يا " دُونَ " أي " نحو : يا أيتها الأرض . ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلي الماء ثم أنّ أُتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصّها . ثم أنّ قيل : وغِيضَ الماء . فجاء الفعل على صيغة " فُعِلَ " الدالّة على أنه لم يَغِيضْ إلاّ بأمرٍ وقرّة قادر . ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : (قُضِيَ الْأَمْرُ) . ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي) . ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرطُ الفخامة والدلالة على عظم الشأن . ثم مقابلة " قيل " في الخاتمة بـ " قيل " في

الفا تحة . أَفَتَدْرِي لَشَيْءٍ